# مذهبنا صحيح يحتمل الخطأ

**بقلم د. صلاح الدين النكدلي**

يؤثر عن سلفنا الصالح عبارة تعبر عن منهج علمي أخلاقي رفيع .. وهي قولهم في المسائل الاجتهادية :

« **مذهبنا صحيح** يحتمل الخطأ **.. ومذهب غيرنا خطأ** يحتمل الصواب » .

سواء كان الاجتهاد بسبب احتمال النص لأكثر من معنى .. أو لعدم وصول نص السنة ، أو ثبوته لدى بعضهم ، أو كان بسبب تباين أفهام العلماء . ■

والقاعدة المذكورة لها فوائد كثيرة إذا تدبرتها أفئدة المرددين لها ، ومنها :

- إمكانية وجود ( الحوار ) بين الإخوة في المجالات التي تختلف فيها الأنظار .. ونتيجة لذلك يحل اللطف في التعامل محل الشدة والغلظة .
- والحوار يوفر إمكانية فهم المختلفين في اجتهاد لوجهة نظر بعضهم .
- وفهم وجهة نظر المخالفين ربما كشف خطأ .. فإذا ظهر الخطأ بدليل مقنع ، وتوفر لدى القائل به عن اجتهاد .. الإخلاص .. قاده ذلك إلى الرجوع عنه .

والكلام في هذه المعاني ضروري في هذا العصر ، نظراً لغلبة التعصب للرأي ورمي المخالفين بكل نقيصة .. ففي عصرنا ظهر ما نسميه ( الحركة الإسلامية ) وضمن هذه الحركة تيارات تميز كل منها بفهم خاص لواقع المسلمين ، والتزمت كل جماعة بالعمل للإسلام وفق طريقة اقتنعت أنها الأسلم والأقوم .. وهذا حق يتمتع به كل مجتهد .. ولا يصح إنكاره عليه .. ولكننا ننكر ( موقف التشنج ) من الرأي المخالف ، مما يؤدي إلى رمي المخالفين في اجتهاد بالضلال أو التبعية لجهة ضالة .. وألطف اتهام يصدر عن المعجبين بآرائهم وصفُهم لغيرهم بالطفولة والسذاجة والسطحية .. وهذا التصرف يقود إلى التباغض والتدابر وذهاب ريح المسلمين .

وما قررناه آنفاً ربما كان محل اتفاق - نظريا - من عامة العاملين في الحقل الإسلامي .. ولكنه في الواقع يفتقر إلى ( ندرة ) من يلتزم به سلوكاً كما يقرره قواعد .. وخشية من حمل كلامنا على غير ما نرمي إليه نضرب أمثلة من واقعنا المرير .

يحدث في بعض الأحايين أن يقوم فرد أو جماعة بعمل ما .. بناء على معلومات معينة وإدراك للنصوص الشرعية وربطها بالواقع القائم .. ومرور الأيام يظهر أن المعلومات كانت ناقصة ، أو أن فهم النص وربطه بالواقع قد تأثر باندفاع أو جهل . وهنا يقف المرء ، أو الجماعة ، في ميدان اختبار دقيق :

▪ إما أن يتم التراجع عن الخطأ ، ولو بعد مضي مدة طويلة على ممارسة العمل ، ويعترف به الفرد أو الجماعة .. وهذا موقف الصادقين في عهدهم مع الله عز وجل .

▪ وإما أن تسيطر الخشية من سقوط الهيبة أمام الناس على الفرد أو الجماعة .. فينشأ عن ذلك الإصرار على الخطأ ومحاولة تبريره .. وهذا مسلك يترك آثاراً تربوية خطيرة مدمرة في حياة الجماعات والأفراد .

▪ وهناك حالة ثالثة نراها في الحياة العملية ، وهي : ربما تغلب الفرد أو الجماعة على وسوسة الشيطان واعترفوا بأخطائهم ، ولكنهم يعانون من الانفعال وما يصاحبه من ردود فعل .. إذا قام من يتكلم أو يكتب ، ناقداً تصرفات خاطئة كالتي كان الفرد واقعاً فيها ، أو كانت الجماعة متبنية لها ، ولربما كان الكاتب أو المتكلم لا يعنيهم في نقده .. وهذا أيضاً يسبب مشكلة تربوية .. لأنه كثيراً ما يقع المرء في الغيبة ، ولربما نال من أخيه في لحظات الانفعال .. وقد يدفعه ذلك إلى الدفاع عن الخطأ ، وهذه مهلكات يجب البعد عنها .

▪ ويقع أحياناً أن يتحدث أخ في قضية معبراً عن وجهة نظره ومدللاً على اقتناعه .. ويكون في السامعين من يرى نفس الرأي ، ومع ذلك تحدث مشكلة إذ ينهض من هؤلاء من يناظر أخاه ويعارضه .. ويسأل الخبير بحقيقة آراء الطرفين عن السبب في المناظرة فلا يستطيع أن يقتنع إلا بسبب لا يذكر عادة وهو كون المتكلم من تيار غير تيار السامع !!

وهذه مسألة أخلاقية مهمة ، وهي في الواقع تفتك بقلوب كثير من الشباب ، وهذا يدفعنا إلى التعبير عنها بسؤال ذي شعب :

- ما ميزان قبول الرأي أو رفضه بالنسبة للمسلم ؟

- وهل يقبل الرأي إذا قال به فلان ؟
- ويرفض إذا نادى به غيره ؟

▪ ليس غريباً ، ولا منكراً أن يقوم المرء ، أو الجماعة ، بالتدليل على صواب الأعمال والمواقف التي يقوم بها الفرد أو تتبناها الجماعة .. فالأصل في كل مسلم أن يأتي الأعمال بعد اقتناعه بصوابها وفائدتها .. ولكن الغريب أن ينظر ، سواء كان فرداً أو جماعة إلى الأعمال والمواقف التي تصدر عن مخالفيه في الرأي ، وليسوا معه في انتمائه ، ينظر إلى أعمالهم بلون واحد هو .. الخطأ .. فلا يقبل منها شيء البتة .

والذي يعاني من هذا المرض الخطير ينسى أن حكمه على أعمال الآخرين محكوم بـ :

- المعلومات السابقة عن أمر ما ، بما في ذلك معرفة النصوص الشرعية .
- الواقع أو الحدث .
- قوة الربط بين المعلومات السابقة والواقع المراد تحديد موقف عملي منه .

وإنّ وقوع الخلل في أحد هذه الأسس يؤدي إلى اضطراب في الحكم .. كما أن المخالف في اجتهاد لديه علم يساعده في فهم الواقع ، كما يتمتع بذكاء يمكنه من قوة الربط بين ما يعلم والحدث .. وربما كان أوسع علماً وأدق معرفة بالواقع وأكثر ذكاء .. والحق أن من يلاحظ هذه المعاني .. عملياً .. لا يستطيع أن ينظر إلى جميع الأعمال التي يقوم بها غيره .. على أنها خطأ محض .

نعود بعد هذه الجولة في أمثلة من واقعنا إلى تأكيد حاجتنا إلى فهم بعضنا ، والصبر على إخواننا في مجال الاجتهاد ، والبعد عن التسرع في إصدار الأحكام على الآخرين ، وأن ندرك أن صاحب الرأي يوقن بصواب رأيه كما نؤمن بصواب رأينا .. وإنه لمنهج قويم ذاك الذي سار عليه المنصفون من علمائنا الأبرار حين قرروا والتزموا القاعدة الذهبية ( **مذهبنا صحيح** يحتمل الخطأ ، **ومذهب غيرنا خطأ** يحتمل **الصواب** ) .